نظرة على واقع التعليم في الجزائر
خلال الفترة الاستعمارية
التعليم التقليدي، التعليم الكولونيالي وصدمة الحداثة

د. عبد الله بوقرن قسم الفلسفة
جامعة منتوري قسنطينة ، الجزائر

بعد فتح البلاد، ينبغي فتح أذهان هذا الشعب؛ تلك مقولة شهيرة لأحد كبار منظّري الاستعمار الفرنسي، إلى ذلك تكون المدرسة والتعليم في جزائر الفترة الاستعمارية، أداة أكثر فعالية لإنجاح سياسة الإدماج الذي كان شعاره الشهير: أجدادنا الغاليون.
في هذا المقال يحاول الكاتب أن يدرس الموضوع من ثلاثة جوانب هي: التعليم التقليدي، الاستعمار ثمّ صدمة الحداثة للخروج بنتائج تنير الموضوع.

Résumé :

Après la conquête de la terre, il convient de conquérir l'intellect de ce peuple; c'est une fameuse déclaration de l'un des grands théoriciens coloniaux français, donc l'école et l'enseignement dans l'Algérie de l'époque coloniale sont des moyens les plus efficaces pour réussir une politique d'assimilation dont le slogan fameux est : *Nos ancêtres les Gaulois*. Dans cet article, l'auteur essaie d'étudier ce thème à travers trois aspects : l'enseignement traditionnel, l'enseignement Coloniale et le choc de Modernisme, et ce, pour déduire des résultats éclairant ce sujet.

مجلة منتدى الأستاذ: المدرسة العليا للأساتذة في الآداب و العلوم الإنسانية ،سطح المنصورة،25000، قسنطينة، الجزائر
الهاتف /الفاكس:98 29 62 31 (0) 213 00
e-mail :bouhrourh@yahoo.fr / bouhrourh@gmail.com

في أدبيات الاستعمار الفرنسي أن التعليم الحديث في الجزائر بدأ بمبادرة فرنسية، وفي نظر غلاة هذا الاستعمار أنّه لا وجود لنظام تعليم عامّ قبل 1830، وفي رأي هؤلاء أنّ تلك الزوايا – التي تمسّكت بتعليم ديني متخلّف خالٍ من القيم الحضارية الحديثة يقتصر على تلقين الأطفال- لا يرقى التعليم فيها إلى التعليم الحديث الذي أرست إدارة الاحتلال قواعده بالجزائر. لقد كان ذلك التعليم يقتصر على تعليم الكتابة والقراءة ثمّ تحفيظ القرآن دون فهم أو إدراك، وليس في ذلك التعليم مناهج ولا مقرّرات، ولا تدرَّس فيه أيّ من موادّ الفلسفة والتاريخ والجغرافيا...[1]، والحال أنّ عدد المدارس في الجزائر حسب إحصائية فرنسية كان في حدود 2000 مدرسة وهو دليل على انتشار واسع للتعليم غير أنّه كان تعليما تقليديا، ومع ذلك فإنّ الاستعمار وجد في تلك المدارس بنية تحتية كبيرة استفاد منها لضمان التعليم لجاليته بالدرجة الأولى، وبذلك انطلق التعليم الفرنسي بالجزائر لأبناء تلك الجالية وأدخلت إدارة التعليم الفرنسي المناهج الحديثة بحيث كان التعليم القاعدي يقوم على أساس الموادّ الثلاث الحساب والقراءة والكتابة ثمّ تليها المواد الأخرى التاريخ والجغرافيا والطبيعة، أمّا المدارس الأهلية فظلّ التعليم بها على ما هو عليه[2].

للترغيب في بثّ التعليم الفرنسي بالجزائر، يقول جونتي دو بوسي (وكان مساعد مقتصد مدني 1832-1835) : إن امتلاك الأهالي للغتنا تجعلهم على اتصال مباشر بنا ولكن أيضا هي الباب الذي يدخلون منه إلى "المعبد" أي إلى كتبنا وأساتذتنا أي أن يكونوا على صلة مباشرة بالعلوم الحديثة ذاتها أمّا دراستنا للغتهم فتفيدنا في علاقتنا بالأهالي لا غير فليس غير اللغة، أمّا الفرنسية ففيها كلّ المعارف الإنسانية التي تراكمت على امتداد السنين[3] .

ظهرت أولى المدارس الفرنسية في الأوساط الحضرية وكانت حواضر الجزائر تتكوّن من المسلمين وهم الأغلبية وأقلّية يهودية ثمّ طلائع المستوطنين الأوربيين، وكانت المدارس الأولى لأبناء الجالية الأوربية، ثمّ شرع في تخصيص مدارس لأبناء الأهالي وكانت أول مدرسة فرنسية مخصّصة لحضر الجزائر قد فتحت أبوابها سنة 1836 (سبقتها مدرسة فرنسية خاصّة للطائفة اليهودية 1832) (4).

كانت إدارة التعليم حذرة وتريد أن تكسب ثقة الأهالي ولذلك كانت المقررات في البداية قد أبقت على توقيت معتبر للغة العربية وجعلت حصصها في الصباح، يدرّسها معلّم مسلم، وكان التعليم الابتدائي مجانيا، ويضمّ موادّ القراءة والكتابة باللغة الفرنسية، الحساب، ونظام الأوزان والقياس، ويضاف إلى الإناث دروس في الخياطة.

كان تدريس اللغة العربية لا يتعدّى الموادّ اللغوية المتعلّقة بقواعد الكتابة من نحو وصرف أمّا الموادّ الأخرى فتدرَّس باللغة الفرنسية، ولذلك تقول مصادر تاريخ هذه الفترة أنّ المعلّم كثيرا ما يضطر إلى الترجمة لفهم الموضوع، وعلى العموم فإن هدف المدرسة خلال فترة طويلة (1830 - 1870) هو محاولة تقريب الأهالي من الثقافة والحضارة الفرنسية ولكن قانون المدارس الابتدائية ظلّ على ما هو عليه حتّى جاء جول فيري بإصلاحاته(5).

التعليم الكولونيالي

كان التعليم الكولونيالي الذي أرسته التشريعات الحكومية الفرنسية مكونا من نمطين رئيسيين هما: التعليم الديني وهو مسيحي تبشيري تحت إشراف الكنيسة، والتعليم العام تحت إشراف السلطة المدنية وهذا الأخير عرف عدة تعديلات تبعا للسياسة السائدة من فترة إلى أخرى، وكذلك الإستراتيجيات التي يتحرك وفقها منظّرو الاستعمار من جهة وضغوطات المدنيين الفرنسيين وهم الكولون من جهة ثانية، في

قضية التعليم بالنسبة لأبناء الأهالي لأن السياسة التعليمية الاستعمارية في الجزائر كانت تتأرجح بين الموافقة والرفض وذلك تبعا لمواقف التردد المتعلّقة بمبدأ الإدماج(6).

دار جدل كبير في الأوساط الفاعلة في الإدارة الاستعمارية وهذا في موضوع إدماج الأهالي في المجتمع الفرنسي، وهو موقف الجمهوريين، أو تطوير الجزائريين في إطار مجتمعهم الإسلامي وهو موقف المحافظين الرجعيين الرافضين لمبدأ الإدماج خوفا من استفادة العنصر الأهلي من رقي القوانين وحقوق المواطَنة التي تكفلها مبادئ الثورة الفرنسية، وهذا الموقف تبنّته على الخصوص الجالية الكولونيالية في الجزائر التي تسعى لإبقاء الأهالي خارج العصر وخارج الحضارة الحديثة، ويمكن الإشارة إلي أن هذا الموقف لم يطبع السياسة الفرنسية في الجزائر وحدها بل كانت ظاهرة عامة اتصف بها الاستعمار الفرنسي في مستعمرات أخرى _ ففي تونس مثلا، كان الرد من طرف أحد الغلاة – "يجب أن لا نعلم العرب الفرنسية بل علينا تلقين الفرنسيين اللغة العربية "(7) .

إذن وجد الاستعمار الفرنسي نفسه أمام اختيارات صعبة فالقرارات المركزية تحثّ على الشروع في فتح الأفكار والأذهان بعد التمكّن من فتح البلاد، وهذا يخدم الاستعمار على المدى البعيد لتكوين أجيال من الأهالي مرتبطة بالثقافة والحضارة الفرنسية ستكون سندا كبيرا للأمّة الفرنسية في مستقبلها، وهذه النظرة البعيدة لم تستوعبها الجالية الكولونيالية التي لا ترى في العنصر الأهلي إلاّ جماعة منغلقة في فلكلورها وأعرافها يلفّها الجهل وينبغي أن تبقى كذلك لتكريس تفوّق العنصر الأوربي في هذا الوسط المتخلّف(8)، وفي هذا السياق يرى فرانسوا بيرو (الذي كتب عن التعليم الابتدائي باعتباره المركز والأساس بالنسبة لأبناء الجزائريين) أنّ التعليم الابتدائي

الموجه قد عاش مرحلة طويلة من الارتباك بحثا له عن صيغة بيداغوجية ملائمة، حيث شهد عدة تغييرات حتى سنة 1890.

لا نعرف إن كان انتصار الموقف الذي يدعمه الكولون إزاء مسألة تعليم أبناء الأهالي وقع برضا السلطة المركزية في المتروبول أم في غفلة منها، والحال أنّ مهمة الاستعمار الفرنسي الأساسية تحوّلت عن الهدف المذكور إلى السير بالتعليم الموجّه لأبناء الأهالي ببطء ومحدودية مقتصرا على الحواضر الكبرى ولم يصل إلى الأرياف إلاّ عندما اشتدّ لهيب الثورة الجزائرية أي بعد فوات الأوان، وقد تحوّل على يد غلاة الاستعمار إلى أداة لتمكين المستوطنين من التحكم في الأهالي عندما أصبحت شهادة نهاية الدروس الابتدائية هي سقف التعليم الذي تفضّلت به حضارة المبادئ الثلاثة الخالدة (شعار الثورة الفرنسية) على أهالي الجزائر بل واعتبر بعض الغلاة أنّ التعليم "الكولونيالي" كان حراكا حضاريا بطيئا للسكان المحليين في شكل رفض من قبلهم(9).

في ما يتعلّق بالمنهاج وضع خبراء الاستعمار والعارفين بالشأن الجزائري من مستشرقين وعلماء تربية برامج تعليمية تضمن للمتعلّم التفوّق في اللغة الفرنسية وترسّخ التباهي بها في مقابل تكوين هزيل بالعربية لا يخرج العربية عن إطار اللهجة المتخلّفة التي تقام بها الشعائر الدينية ويتحادث بها العامّة، وقد حقّقت هذه البرامج أهدافها ومنذئذ إلى اليوم رسخت هذه الفكرة الاستعلائية التي لا تزال راسخة في الأوساط المتفرنجة (10).

يمكن اعتبار التعليم الكولونيالي في الجزائر تعليما فئويا موجّها للعناصر المستوعبة للحضارة الفرنسية، المتوفّرة على شروط الأهلية للاندماج من الذين عملوا في الجندية والإدارة، وهؤلاء هم الذين سيكونون وسطاء لتمرير رسالة فرنسا الحضارية لأبناء

الشعب الذي ينتمون إليه، وهو الهدف الأساسي الذي أنشئ من أجله معهد ترشيح المعلّمين ببوزريعة باستهداف حقل التعليم الذي لا يمكن إحداث أيّ تحوُّل سوسيوثقافي بدونه، ومع ذلك ظلّت الأحوال الشخصية الإسلامية حاجزا قاوم الاندماج الكلّي لهذه العناصر، وحافظ على ارتباط أغلب العناصر المستفيدة من تعليم كولونيالي بتقاليدها وانتمائها لأمّتها .

أما التعليم الديني المسيحي فقد انطلق هو الآخر مع الغزو مستغلاً بادئ الأمر المآسي التي تسبّب فيها الاحتلال وكذلك بعض الكوارث الطبيعية التي ضربت الجزائر آنئذ كالجفاف والأوبئة... هذه الظروف المزرية للجزائريين وجدت فيها الجمعيات "الخيرية" المسيحية الفرصة المواتية لعرض خدماتها على أبناء المسلمين لتنصيرهم [11].

كانت المدرسة الكولونيالية تهدف ظاهرياً إلى تعليم أبناء الأهالي اللغة الفرنسية من أجل تحضيرهم و تثقيفهم ودمجهم في المجتمع الفرنسي، وفي الوقت ذاته تعليم أبناء المستوطنين اللغة العربية من أجل استيعاب الواقع الاجتماعي في الجزائر، وفهم عقلية الأهالي للتعايش معهم[12]، وقد رأى التقليديون في هذه الصيغة المختلطة (الفرنسية العربية) سعيا آخر لسلب الأهالي هويتهم وخصوصيتهم، ولعل ما صرّح به أحد غلاة الاستعمار دليل إثبات، فقد جاء على لسانه: "إن الغرض من إنشاء هذه المدارس هو محاولة القضاء على المدارس العربية الإسلامية الخاصة والحرة"[13] أما الغرض من تعليم الفرنسيين اللغة العربية فهو تمكين هؤلاء من استيعاب البيئة الاجتماعية في هذه البلاد التي ليست لهم خلفية فيها لضمان تفوّقهم وتنمية قدراتهم السوسيوثقافية، ورغم أنّ هذه الإستراتيجية التي خطّط لها كبار المنظّرين تضمن السير بالتعليم الابتدائي الموجه للجزائريين في طريق خدمة الجالية الكولونيالية وتعزيز مواقعها بهذه البلاد إلا أنها جوبهت بالرفض الشديد من قبل المستوطنين، لأنهم يدركون أنّ التعليم

سلاح لا يُقهَر وامتلاك أبناء الأهالي له من شأنه أن يقلب الموازين لصالحهم تدريجيا، وحيث أنّ الجالية الكولونيالية كانت تشكِّل الأغلبية في البلديات، كما كانت تقوم بالإشراف الإداري البلدي والتمويل فقد تمكّنت من التصدي للعسكريين وعرقلت كل محاولاتهم لإنشاء مدارس للأهالي، كلما اتسعت رقعة المستوطنين فيها(14).

في الوقت ذاته يجب نشر نوع من التعليم يقتصر على أبناء من تلمس فيهم إدارة الاحتلال الولاء والإخلاص، ليكون هذا التعليم في خدمة الواقع الاستعماري في الجزائر، بالقدر الذي يبرز رسالة فرنسا الحضارية في الشمال الأفريقي، و يجعل كلّ ما هو أهلي في الدرجة الدنيا حتّى يضمحلّ تدريجيا، وبذلك يتحقّق استمرار الولاء ويمتدّ عبر الأجيال، ولا مانع بعدئذ أن يتوسع قليلا نحو مجالات الهندسة الفلاحية لتخريج مهنيين للعمل في مزارع الكولون، ومؤسساتهم، ولكن هذه السياسة – التي يمكن التعبير عنها بسياسة التقارب والدمج وهي السياسة التي نادت بها الجمهورية الفرنسية الثالثة وأسست لها المدارس الحكومية– فشلت، وعادت الأوضاع إلى سابق عهدها وأغلقت تلك المدارس وحلّت محلها سياسة جديدة مبنية على التمييز العنصري حيث فُصل تعليم الجزائريين عن تعليم الأوروبيين من حيث مؤسساته وبرامجه[15].

المدارس المساعدة :

في سياق التمييز العنصري الذي مارسته السياسة التعليمية الاستعمارية، لم يقتصر ذلك التمييز على التفريق في المناهج، ونوعية المدرسين، بل تعداه إلى نوعية المدارس والأقسام، حيث يدرس التلاميذ الأوروبيون في مؤسسات كاملة التجهيز تتوفر على شروط ومواصفات المدرسة الحديثة، بأقسامها الواسعة، وأفنيتها الرحبة، وحدائقها الجميلة، مع توفر أقسامها على التدفئة شتاء، وعلى الوسائل البيداغوجية الضرورية، وهو ما تفتقر إليه المدارس المخصّصة لأبناء الأهالي، وفي هذا السياق تمّ تطبيق

مشروع تمييزي يقوم على تأسيس مدارس خاصة بأبناء الأهالي تدعى المدارس المساعدة(16) (الإضافية) أو كما أطلقت عليها المعارضة الفرنسية (مدارس-أكواخ **Ecoles-Bidonvilles**) وهي ذات برامج تعليمية وتطبيقية، تتناسب مضمونا مع احتياجات المعمرين الأوروبيين، و قد بقى تعليم الأهالي على هذه الحالة لغاية نهاية الربع الأول من القرن العشريين، وقد عبَّر السيد غاريي (1904) ، في شأن وجوب الاكتفاء بالأكواخ المستقبلة للأهالي خير تعبير قائلا : "لماذا توضع الطاولات بينما الحصائر تكفى" وقد أضاف الوالي العام السيد جونار الذي كان أكرم من سابقه حيث أضاف: "يجب أن يكون كوخا أنيقاً." (17) .

بالنظر إلى تصريحات الحاكم العام وأمينه العام حول موضوع المدارس المساعدة وهي في الحقيقة المدارس- الأكواخ المفروضة من المندوبيات المالية للبلديات بحجة قلة الميزانية وانعدام الموارد المالية ، وقد وقف جان مير *Jeanmaire* المسؤول عن التعليم في الجزائر ضد هذا المشروع و أهم حجة استند إليها لإبطاله هي أنه يسيء لسمعة فرنسا الحضارية، وليس الحط من شأن المسلمين بحيث تكفيهم الحصر وتغنيهم عن الطاولة والكرسي، ولكن رغم دفاعه عن فرنسا الحضارة فقد تألب ضده المعمرون وقاوموه إلى أن أبعدوه عن منصبه"(18).

وما يقال عن المدرسة والمعلم والوسيلة التربوية، يقال أيضاً عن الميزانية التي هي الأساس ، فالمساواة تنعدم بين المدارس المخصصة للأهالي، والمدارس الأوروبية، فالأخيرة تتمتع بميزانية ضخمة مع قلة عدد الأوروبيين مقارنة بالجزائريين، فلا تنال مدارس الأهالي إلا القليل مما يخصص لمدارس التعليم،وهي ظاهرة عامة منسجمة مع سياسة التمييز العنصري التي مارسها قادة الاحتلال الفرنسي تجاه المدرسة الجزائرية، بالعمل على الحط من قيمة كل ما هو أهلي وفي الوقت ذاته الرفع من شأن ما هو

فرنسي أوروبي،ففي عام 1905م على سبيل المثال خصص للمدارس الأهلية مبلغ 1,314,234فرنكا، وخصص للمدارس الأوروبية 7,847,368 فرنكا،وهذا تطبيقا لمخطط التنمية الذي أعدته لجنة الدراسات 1904م(19).

يبين التمييز العنصري الذي مارسته السلطات الاستعمارية أن إدارة الاحتلال استسلمت لغلاة المعمّرين وتحوّلت إلى أداة لعرقلة سياسة المتروبول الأقلّ تشدّدا ، فجاءت قراراتها معاكسة لما أوصى به المنظّرون لجزائر مدمَجة في الوطن الأمّ (جول فيري وجون مير...) ، وهذه شهادة كاتب عن السياسة التعليمية الاستعمارية وممارساتها التعسّفية بحيث وصل الأمر إلى "حدّ تأجير الكتب لأطفال الأهالي" ، بينما ينعم أطفال الأوروبيين بمختلف الوسائل البيداغوجية التي توفَّر لهم بالمجان، ويضيف:" إن تجربة تطبيق قانون التعليم الإجباري في الجزائر قد باءت بالفشل بصورة مؤسفة حيث أن المدارس لا تكون عامرة إلا أثناء المناسبات مثل الزيارات البرلمانية والدورات التفتيشية، ولا يعمرها تلاميذ يدرسون بها، ولكن تعمرها ناشئة عربية تكون مكتراة من طرف السلطات المحلية لهذا الغرض ."(20) .

"النخبة" المتوسطة:

يرى التقليديون أنّ سلطات الاحتلال فتحت أبواب مدارسها لفئة قليلة من أبناء الأهالي، بهدف التأثير في الأفكار بشكل يتجاوب مع سياسة الاستعمار لأنها في رأيهم انحرفت بالمدرسة عن وظيفتها التعليمية التربوية إلى تحقيق أهداف إيديولوجية استعمارية، فكان تعليم الأهالي عملا إيديولوجيا استعماريا يهدف أساسا إلى غرس مركبات الانهزامية وتشجيع تقمّص شخصية الآخر أو ما يعبَّر عنه بالاستلاب (Aliénation) أي رفض الأنا والاندماج في الآخر، في نفسية المتخرج من المدارس الكولونيالية، ومما كتبه شارل روبير أجرون أنّ : الحاكم العامّ جول كامبون

Jules combon (نهاية القرن التاسع عشر)، تأسف لغياب وسيط مقبول بين الأهالي وفرنسا ولذلك فإنّ من مصلحة فرنسا تكوين نخبة من بين الأهالي وتشكيل ما يشبه هيئة أركان مسلمة مثقفة ملتفّة حول فرنسا، وقد أكد الحاكم العام جونار *Jounart* في نفس السياق بأن :"التطور في الجزائر الأهلية وفرنستها يتم عن طريق نموذج المسلمين المتعلمين."(21).

يتبيّن من خلال النصين السابقين أن السياسة الاستعمارية رسمت خطّة لتعليم فئة قليلة من الجزائريين تكون وسيطا بينها وبين الأهالي، ولن يتحقّق ذلك إلاّ بمناهج وبرامج تضمن ارتباط هذه الفئة في ثقافتها بالمتروبول، مثل تدريس تاريخ وجغرافية فرنسا إلى جانب بعض الصفحات الانتقائية من تاريخ الشمال الأفريقي وخاصّة الفترة الرومانية التي هي قاسم مشترك بين ضفّتي المتوسّط الشمالية والجنوبية وزرع المشاعر الفرنسية من خلال تدريس لامرتين ولافونتان وموليير وبودلير الخ ... ، مع الحرص على أن يكون المعلّم الأهلي هو من ينقل تلك الثقافة، وبذلك يؤدّي دورا مزدوجا كسفير بين الغالب والمغلوب، يقدم للاستعمار صورة الأهلي المستوعب للحضارة وروح العصر ، ويقدّم لبني قومه بصفته معلما الثقافة الفرنسية التي يقبلونها منه باعتباره منهم. وبقدر إتقانه للدور يصبح في نظر السلطات الاستعمارية أحد الأفذاذ المتفوقين من الأهالي(22) .

قد يعترض البعض من الأهالي على هؤلاء المعلّمين فينقمون عليهم، لكن مع مرور الوقت سيتقبّل الجميع الوضع عندما يتحصّل أبناؤهم على قسط من التعليم الذي يرفع حظوظهم اجتماعيا ومهنيا، وهو ما نلمسه في الجهود التي بذلها القائمون على إدارة معهد ترشيح المعلّمين ببوزرّعة ، ويمكننا التساؤل عن حقيقة الرسالة المطلوب توصيلها من خلال ما قام به هذا المعهد من مجهودات لتكوين هذه الفئة

التي تقوم بدور الوسيط بين المعمرين و المسلمين التي يتحدّث عنها مولود فرعون ، لأن الطرف الاستعماري من خلال غلاة المعمّرين لم يكن على استعداد لتسهيل عملية التفاهم وهو ما يبرّره مولود فرعون بقوله : إنّ السبب هو السياسة الاستعمارية التي أحلت القوة مكان المحبة، باستثناء بعض الأفراد القليلين جدا في الطائفتين (طائفة الأوروبيين التقدميين وطائفة الأهالي الأعيان الذين رفع الاستعمار من شأنهم) ويعتقد فرعون أنّ:"سبب عدم التنافر بين الشعبين هو جهل الأوروبيين لثقافة الأهالي المتشبعة بالروح الإنسانية ، وهو السبب في حقدهم و احتقارهم لكل ما هو أهلي، حتى و لو كانت دراسة اجتماعية حضارية قام بإنجازها أحد الأهالي، فإنها سوف تقاطع وتحتقر ولا تقرأ من طرف الأوروبيين"، أما على المستوى الشخصي الاجتماعي فقد عملت المدرسة العلمانية الفرنسية فعلها في نفوس هذه الشريحة خاصة وأن رسالتها تتمثل في فصل الجزائري عن معتقداته الدينية وارتباطاته الاجتماعية و الحضارية (23) .

من خلال ما سبق يتبين لنا أن السلطات الاستعمارية اعتمدت على التعليم في ترسيخ دعائم الاستعمار الاستيطاني ودليلنا على ذلك هو أنّ وزارة الحرب الفرنسية هي التي كانت قد أشرفت على التعليم منذ بداية الاحتلال، ثم تحول الإشراف إلى وزارة الداخلية فيما بعد، ثم إلى مديريات الاستعمار، وأخيراً أصبح أمر التعليم بيد وزارة التعليم العمومي مع ممارسة التمييز العنصري كما ذكرنا، وفي هذا السياق يقول أحد المتضلعين برسالة فرنسا الاستعمارية التي كلفت المدرسة بإيصالها إلى الأهالي عن طريق النخبة، لذلك فإن المدرسة الأهلية تقوم بعمل مزدوج فالمتخرج منها يصبح خاضعا لفرنسا، أو في خدمتها ولو بطريق غير مباشر، لأنه من الأهداف الأساسية للمدرسة الاستعمارية هو – على حد تعبير برنارد- تحويل رعايا فرنسا إلى أعضاء مفيدون ومخلصون لفرنسا. وهؤلاء هم في الواقع ما يمكن أن نطلق عليهم النخبة

الوسطى وهم الذين تلقّوا تعليما يؤهّلهم لشغل الوظائف الإدارية البسيطة بحيث يكونون دائما وسطاء بين المسيّرين الحقيقيين لمختلف المصالح بينما يظلّ العنصر الأوربي في هرم القيادة يدير الأجهزة من أعلى السلم الوظيفي، وهؤلاء الذين تلقّوا تعليما متوسّطا سيظلّون دائما في حال التابع المبهور بكلّ ما هو فرنسي مادّيا وأدبيا وهم نموذج المستلب الذي بقدر انبهاره بالحضارة الأوربية بقدر ازدرائه بكلّ ما هو أهلي جزائري ومن وراء ذلك كلّ ما هو عربي إسلامي.

نخبة النخبة

تتكون من بعض المحظوظين والميسورين الذين تمكّنوا من دخول الجامعة وتحصيل قدر أعلى من العلوم في تخصّصات عديدة ولكنّهم قلّة، كما نجد ضمن هذه الفئة عدد هامّ من الأفراد المتميّزين الذين تمكّنوا من الإفلات من بين النخبة الوسطى، وهم ذوو قدرات تتجاوز في كثير من الأحيان سقف التعليم الذي تلقّوه، ومن هؤلاء سيبرز قادة فكر وأدب وسياسة من معلّمين وأدباء وصحافيين وزعماء أحزاب، وهؤلاء هم دعاة الحداثة المتموقعون في الوسط ما بين النخبة التقليدية وهي نخبة منغلقة تريد إبقاء الشعب في ثقافة تراثية تتغنى بالقرن الأول للإسلام، هذا من جهة ومن جهة أخرى ذوو الثقافة المتوسّطة وهم شريحة واسعة في أوساط المتعلّمين المستلبة المنبهرة بالحضارة الأوربية. وهذه النخبة هي التي ستشقّ طريقها في خدمة البلاد منذ ظهور طليعتها المسمّاة: المتطوّرون (les évolués) وهي التي انتظمت سياسيا في نجم شمال أفريقيا والأحزاب التي انبثقت عنه، وكانت منفتحة على التيارات السياسية والفكرية المعاصرة، ومن هؤلاء نجد المدرسيين (Les Médersiens) [24] والمعلمين خرّيجي معهد بوزريعة وهم أشخاص رياديون يمثلون حقا طليعة الحداثة التي اقترنت بالتعليم الفرنسي في الجزائر مع أنّ هذا التعبير غير مستساغ عند بعض الدوائر

المدفوعة إمّا بقصورها أو بتكوينها الأيديولوجي(25)، ولقد ظلّ أستاذ المدرسة (le maitre d'école) لدى الجميع يمثّل قيمة حضارية ومرجعية لمحيطه الاجتماعي في كثير من المواقف.

كان لهذه الفئة الاجتماعية المهنية دون ريب خصوصيتها، ويشار إليها في الدوائر الرسمية الفرنسية بعبارة فيلق الجمهورية الأسمر، ومع نهاية القرن التاسع عشر اعتبِروا عاملا أساسيا لحضارة في طور النشوء أكثر من كونهم أساتذة مدرسة بالمعنى العادي للكلمة.

خلاصة

كان التعليم الأهلي في الجزائر إلى عشية الغزو الفرنسي - على غرار التعليم في كلّ البلدان ذات الثقافة العربية الإسلامية – تقليديا بل تراثيا، وبقدر انتشاره على نطاق واسع نسبيا بقدر ما كان غير مجدٍ كثيرا، وعندما سيطر الاستعمار الفرنسي وجاء بنظمه التعليمية الحديثة، بدأ في توسيع نطاق التمدرس ليشمل أبناء الأهالي في الحواضر الكبرى **فحدثت الصدمة** التي عبّر عنها توران (.Turin Y) بالمواجهة الثقافية، وقد كان التحفّظ من الجهتين فالقيادات الروحية الأهلية ترى في التعليم الفرنسي خطرا على الهوية الدينية والإدارة الاستعمارية تخشى من ظهور جيل متعلّم من بين الأهالي ولكنه غير قابل للإدماج، ويبدو أن هذا التحفّظ لدى الطرفين هو الذي أنتج مقرّرات دراسية خاصّة بأبناء الأهالي، أدنى في مستواها من المقرّرات المخصّصة لتعليم الفرنسيين.

تأكّد الطرفان الفرنسي والأهلي بأنّ التعليم العربي لا يمكن أن ينافس التعليم الفرنسي، لأنّ الأول تقليدي والثاني حداثي، وبقدر ما كان الفرنسيون يتوجّسون خيفة من التعليم العربي ويعتبرونه عنصر تعبئة ضدّ الاستعمار كان القادة الروحيون

للمجتمع الجزائري يرون في التعليم الفرنسي أداة إدماج في الحضارة الأوربية، ولم تفلت من ضغوط الطرفين إلاّ قلّة قليلة من العنصر الأهلي تمكّنت من تجاوز سقف المقرّرات الدراسية المبرمجة لها، وبعض هؤلاء كان عصاميا والبعض الآخر واصل تعليمه الجامعي لتنشأ من الجميع عصاميين[26] وجامعيين نخبة النخبة، وما عدا هؤلاء فقد أدّت مقاومة التعليم الفرنسي إلى ضرب الحداثة بطريقة غير مباشرة ، أمّا التضييق على التعليم العربي فقد أدّى إلى إضعاف الثقافة العربية التي ظلّت ثقافة تراثية إلى حدّ معاداة الحداثة، وهذا التضادّ الذي لم يُحسَم استمرّ إلى ما بعد الاستقلال وهو مسؤول إلى حدّ كبير عن الاضطرابات التي لا تزال تداعياتها قائمة.

هوامش وتعاليق

(1) ... وعندما يختم التلميذ ربع القرآن أو نصفه يمكنه أن يغادر الزاوية وأن يعود إلى دواره ليفتح بدوره مدرسة لتعليم القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن... أنظر :

-Mirante (Jean), Cahier du centenaire de l'Algérie, XI, la France et les œuvres indigènes en Algérie, Alger 1930, p. 72

ولا يختلف ابو القاسم سعد الله كثيرا عن هذا الوصف فهو يقول عن التعليم في العهد العثماني أنّه: لا يحرّك آمال الشباب ولا يثير فضولهم للاطلاع على عوالم جديدة وأفكار حرّة، أنظر كتابه: تاريخ الجزائر الثقافي ج1 ص 335.

(2) وصفته أدبيات الاحتلال بأنّه وسيطي (Médiéval) متحجّر بعيد عن واقع الحياة، مبهم، لا لون له ولا ملامح، .Mirante (J.), op.cit. loc. cit-.

(3) -Genty de Bussy , De l'établissement des Français dans la Régence d'Alger et des moyens d'en assurer la prospérité, Paris, 1839, tome 11, page 205.

(4) MIRANTE (Jean), La FRANCE et LES ŒUVRES INDIGÈNES en Algérie, cahier IX, du centenaire de l'Algérie, publié par le comité national

métropolitain du centenaire de l'Algérie, Alger Paris 1930, pp. 73-74

(5) اعتبر البعض ظهور المدرسة الفرنسية عملا فرضته الإدارة الاستعمارية منذ 1883 وهذا تاريخ معْلمي في مسار التعليم في الجزائر يفصل بين مرحلتين الاولى وهي المسماة مرحلة الرفض والثانية مرحلة الإقبال على التعليم الحداثي الفرنسي الذي سينمو أكثر في الفترة ما بين الحربين، والواقع أنّ قانون جول فيري هو الذي أحدث تغييرا محسوسا في المشهد التربوي، أنظر :

Aïssa Kadri, « Histoire du système d'enseignement colonial en Algérie », colloque *Pour une histoire critique et citoyenne. Le cas de l'histoire franco-algérienne*, 20-22 juin 2006, Lyon, ENS LSH, 2007, http://ens-web3.ens-lsh.fr/colloques/france-algerie/communication. php3?id_article=206

(6) الواقع أن الأولياء كانوا في أغلبيتهم الساحقة لا يقرأون ولا يكتبون، ولذلك كانوا أسرى الأحكام التي يطلقها معلّمو الزوايا، الذين لا يتردّدون في دقّ نواقيس الخطر وحجّتهم أنّ التعليم الفرنسي يهدف إلى طمس الهوية وإلى التنصير وكان هذا كافيا لحمل الأولياء على اتخاذ موقف الرفض الجماعي ولكنه في الواقع رفض غير واعٍ، مع أنّ الكثير من الأوساط الرجعية اليوم يعتبره عملا وطنيا مجيدا، في حين أنّه ضيّع الفرصة على الكثير وحال دون الحصول على تعليم حداثي، أنظر:

-Ardaillon, situation de l'enseignement des indigènes, 1910-1911, pp. 35-36.

ولم يتردّد بعض هؤلاء في اعتبار التعليم الفرنسي "مؤامرة" تهدف إلى القضاء على دينهم، أنظر:

-Cheffaud (M.), l'enseignement des Musulmans en Algérie de 1830 à 1946, in Documents Algériens, série politique, 1947, n° 11, p. 1

(7) - Turin (Yvonne), Affrontement culturels dans l'Algérie coloniale, écoles, Médersas, Religion, 1830-1880, Paris Maspéro,1971, pp. 230-237

(8) لم يكن كل الكولون ضد تعليم أبناء الأهالي، فقد كان هناك فريق منهم ولكنه محدود العدد يطالب بضرورة تعليمهم ولكن لم تكن نوايا هؤلاء خالصة، فهم يريدون تعليما يؤهّل المتمدرسين الأهليين ليكونوا يدا عاملة ماهرة في خدمتهم و... ليصبحوا مساعدين فعالين للكولون الأوربيين الذين يشغّلونهم، أنظر: - Merad (Ali), op. cit. p. 610.

(9) -Turin (Y.), op. cit., pp. 240- 245

(10) إذا كانت الفرنسة تخصّ اللغة فقط فإنّنا نعني بالتفرنج اعتناق الثقافة والحضارة الفرنسية والانسلاخ عن الشخصية القومية .

(11) لا ريب أن الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية قد وجدت في الاحتلال فرصة للتنصير ولكن علمانية الدولة الفرنسية جعلت عملها أقلّ حدّة، مع أنّ قادة الاحتلال أبدوا في عديد المناسبات تعاطفهم مع ما تقوم به الكنيسة (ولم يُخْفِ لاموريسيار مثلا إعجابه بنشاط آباء الكنيسة، أنظر: رايس (حسين)، بعض جذور الإشكالية الثقافية حاليا بالمغرب العربي، في مجلة شؤون عربية عدد 30، ص ص 3&-32) ولكن موقف العسكريين والسياسيين والإداريين ما كان له أن يتجاوز الجانب العاطفي لأنّ قوانين فرنسا العلمانية كانت صارمة.

(12) ميّزت المناهج الفرنسية بين العربية الفصحى والعربية الدارجة (Arabe dialectal) فالأولى لغة نخبة وغير مستعملة في الحياة اليومية ولذلك عمّمت تعليم الثانية، وكانت نصوص العربية الدارجة المقرّرة محلّ سخرية من طرف المتخرجين من الزوايا معتبرين إياها إساءة إلى اللغة العربية وحطّ من قيمتها، بينما كانت المناهج الفرنسية تريد حصول التلميذ الفرنسي على أداة تعامل واحتكاك بالعنصر الأهلي وهذه الأداة ما هي إلاّ لغة الشعب .

(13) - Turin (Y.), op. cit. p. 246

(14) وفي هذا السياق كتب أحد غلاة الاستعمار وهو درابيي : "إنّ التكوين الثقافي الموجّه لشغل وظائف هي غير متوفّرة للجزائريين تعطيهم طموحات يصعب تحقيقها وتخلق عندهم أطماعا تجعلنا –في حال تحقيقها- نفقد صفة الأسياد في يوم من الأيام"، أنظر : -Merad (A.), op. cit. p. 610

(15) وفي تصريحات لجنة تعليم الأهالي أنّه :" إذا رفعنا الأهالي إلى مستوانا سنعمل على طرد أنفسنا من هذه البلاد، أنظر: -A.O.M.14H41, Commission de l'enseignement des indigènes, 1908

(16) Écoles auxiliaires,. وهي مدارس ريفية أسست لتوسيع التعليم نحو الأرياف، ولكن دون تجهيزات أو دعم مالي .

(17) - Ageron (Ch. R.), les Algériens Musulmans et la France, 1871-1919, P.U.F., Paris 1969, T. II, p. 931.

(18) العلوي (محمد الطيب) ، التربية بين الأصالة و التغريب، جريدة السلام، 20 ماي 1996، عدد 1384، الحلقة 7 ، ص18

(19) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

(20) - Merad (Ali), Regards sur l'enseignement des musulmans en Algérie, 1880-1960, Paris 1963, p. 604.

(21) شارل روبير آجرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، تعريب عيسى عصفور، منشورات عويدات بيروت 1982 ، ص24.

(22) المرجع نفسه، ص33.

(23) نسيب (يوسف)، مولود فرعون: حياته وأعماله، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر1991، ص ص 88- 90.

(24) نسبة إلى المدارس الفرنسية العربية (Ecole franco-arabes) وهؤلاء تلقّوا تعليما مزدوجا، في مدارس رسمية وحملوا إلى تلامذتهم معارفهم ونظرتهم الجديدة للعالم وأفادوا اللغة العربية بما اطّلعوا عليه من مناهج ومضامين حديثة دراسةً وتحليلا وتأمّلاً، للمزيد أنظر:

Abderrahim Sekfali, «Instituteurs et médersiens en Algérie coloniale», colloque *Pour une histoire critique et citoyenne. Le cas de l'histoire franco-algérienne*, 20-22 juin 2006, Lyon, ENS LSH, 2007,http://ens-web3.ens-lsh.fr/colloques/france-algerie/ communication. Php 3 id_ article=254

(25) هذه الدوائر في الواقع مدفوعة من شيئين معا وهما القصور في التكوين والنزعة الأيديولوجية، وهي دوائر تجهل الجزائر بتاريخها وجغرافيتها التي كانت دائما في احتكاك بالآخرين وبلغاتهم، وقد ظلّ المشهد اللغوي متنوعا ومتعددا وهو تنوّع لا يحتاج إلى كبير عناء لإظهاره، وكما تقول خولة طالب الإبراهيمي لقد طوّر الجزائريون للتأقلم مع هذا الوضع نصّهم الخطابي الشفوي لتجد فيه كلّ تلك العناصر المتداخلة ذاتها ... وهذا الوضع السوسيولساني من الصعب على السطحيين إدراكه فاكتفوا بإصدار بيانات وقرارات رسمية بحجّة حماية مكوّنات الهوية الوطنية ونعت النخبة بالمنصهرين في الثقافة والحضارة الاوربية ، أنظر:

Khaoula Taleb-Ibrahimi, « L'Algérie : coexistence et concurrence des langues », colloque *Pour une histoire critique et citoyenne. Le cas de l'histoire franco-algérienne*, 20-22 juin 2006, Lyon, ENS LSH, 2007, http://w3.ens- lsh.fr/colloques /france -algerie/ communication. php3?id_article=212

(26) نقصد بالعصاميين أولئك الذين تلقّوا تعليما أوليا لا يتجاوز المرحلة الثانوية ولكنهم اغتنوا من ثقافة عصامية وامتلكوا ناصية الكتابة وفيهم روائيون وصحافيون مرموقون.